

الفصل الخامس

مواقف وحوارات فى أرض الحساب

- حوار بين الله سبحانه وجميع الرسل.
- حوار بين الله سبحانه وعيسى.
- حوارات مع الجن والإس.
- حوار مع الذين كذبوا بآيات الله.
- حوارات مع الذين كذبوا على الله.
- حوار مع الذين أجرموا.
- حوارات مع الذين أشركوا.
- مواجهات بين المشركين والذين اتخذوهم آلهة.
- حوار مع الذين عبدوهم من دون الله.
- حوار بين الله سبحانه والملائكة.
- دعوة للسجود.
- مواقف الجدال والخصام بين الأتباع والمتبوعين.
- حوارات وردت فى الأحاديث النبوية.
- المرور على الصراط.
- الحوض.
- أصحاب الأعراف.

مواقف وحوارات أرض الحساب

عندما تتجمع كل الخلاق من ملائكة، وإنس، وجن منذ بداية الخليقة حتي قيام الساعة وقد اصطفت في أرض الحساب للعرض على الله سبحانه ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا﴾ الكهف: ٤٨ وظهرت الجنة والنار ليراهما أهل المحشر، هنالك يتذكر كل إنسان ما عمله في الدنيا من خير أو شر ويسترجع شريط حياته كاملاً بكل ما فيه، ويتذكر أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قد أخبره عن طريق رسله وكتبه أن هناك حياة أخرى يكافئ فيها الله المطيع ويجازي المسيء **قال تعالى ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ^٤ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾** الفجر: ٢٣ عندئذ يندم كل عاص حيث لا ينفع الندم على تفريطه وعصيانته، ويقول متحسراً:

﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ الفجر: ٢٤، أى يا ليتنى أدركت أن حياتى فى الدنيا ما هى إلا مرحلة وسرعان ما تنتهى، وأن حياتى الحقيقية التى ينبغى أن أعمل من أجلها، وأتزود لها بالإيمان والعمل الصالح تبدأ فى الحياة الآخرة.

وتشهد ساحة العرض على الله سبحانه العديد من المواقف والحوارات بين الله سبحانه وتعالى وجميع الأمم، حيث يقص سبحانه وتعالى على كل واحد من عباده بالتفصيل بما قاله وبما عمله فى الحياة الدنيا حتى ولو كان شينا بسيطاً، لأنه تعالى الشهيد على كل شئ لا يغيب عنه شئ بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور **قال تعالى ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَمَ^٥ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾** الأعراف: ٧.

وفيما يلى استعراض لبعض هذه المواقف والحوارات كما أخبرنا عنها القرآن الكريم مع مراعاة أن الله أعلم بالترتيب الزمنى لتلك المواقف والحوارات وأبهم يسبق الآخر:

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

قَالَ تَعَالَى ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ (١) غافر: ١٦-١٧.

فى أرض الحساب حيث يتلاقى العباد جميعا مع الخالق ليحاسبهم على أعمالهم، يراهم الحق سبحانه، ويرون بعضهم بعضا، لا شئ يكنهم ولا يظلمهم، ولا يسترهم شئ من جبل أو بناء ولا يخفى على الله سبحانه شئ من أحوالهم وأعمالهم، ولا من سرائرهم، ينادى الله سبحانه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟﴾

فلا تجيب الخلاق هيبة الله تعالى وفرعا، فيجيب تعالى نفسه قائلا ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى الله المتفرد بالملك والحكم الذى قهر بالقلبة كل ما سواه، ويحدد عز وجل الملامح الرئيسية لهذا اليوم وهى:

- ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى اليوم يوم القضاء والفصل بين العباد حيث تجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر.
- ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أى لن يظلم أحد فى هذا اليوم شيئا، لا بنقص الثواب، ولا بزيادة عقاب.
- ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى مهما بلغت الأعداد سيتم الحساب بسرعة، ولا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلاق جميعا فى وقت واحد كما كان يرزقهم فى وقت واحد.

حوار بين الله سبحانه وجميع الرسل

مَاذَا أُجِبْتُمْ؟

قال تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة: ١٠٩.

لقد أخبرنا الحق سبحانه في القرآن الكريم أنه سيسأل يوم الحساب جميع الرسل عليهم السلام المتصفين بالصدق منذ آدم حتى محمد صلى الله عليه وسلم: هل بلغوا الرسالة ووضحوا منهج الله للأمم الذين أرسلوا إليهم؟ قال تعالى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأعراف: ٦، فها نحن الآن في الآخرة وعلى مرأى ومسمع من جميع المخلوقات التي اجتمعت في أرض الحساب، يتحقق الخبر ويصدق الله سبحانه وعده ويتم سؤال الرسل عليهم السلام:

﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ؟﴾ أى كيف كانت استجابة قومكم إلى المنهج الذى دعوتهم إليه؟ وفسى هذا تقرير واستهزاء للذين خالفوا الرسل ممن يشهدون اللقاء.

كان من المتوقع أن يقص كل رسول بما أجابه قومه، ويعرض ما لقيه من مشقة وعنت فى تبليغ الدعوة، ولكن جاءت الإجابة تعكس مدى تميز هؤلاء الرسل بمعرفتهم بالله سبحانه وتعالى فكان الجواب:

﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ﴾ لأن معرفة الله شاملة وعلمه قد وسع كل شئ، فالرسل بشر لهم علم ما حضر، وليس لهم علم ما استتر، لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى فاستجاب لهم من استجاب، وتولى منهم من تولى، وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى، فإتما له ظاهر الأمر وعلم ما بطن لله وحده، وهم فسى حضرة الله سبحانه الذى يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه الخبير العليم فيعلنون أن العلم الحق لله وحده، وأن ما لديهم من علم لا ينبغى أن يدلوا به فى حضرة صاحب العلم تأدبا وحياء ومعرفة بقدرهم. ولكن كيف يقول الرسل ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ على الرغم من أن هناك من استجاب لدعوتهم ومن لم يستجب لها؟ يقول الشيخ الشعراوى (لأن الآخرة فيها

حساب على نوايا القلوب والسرائر، لقد علم الرسل الأمور العلنية من أقوال وسلوك، ولكن الحق يحاسب على حسب لنية والسلوك، وهو سبحانه الأعلم بالسرائر وما تخفى الضمائر وأيضاً فالرسل قد علموا للذين آمنوا بالمنهج وكانوا معاصرين لهم، ولكن ليس لهم علم بمن كفر أو آمن بعد أزمنتهم^(٢).

حوار بين الله سبحانه وعيسى

ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟

قال تعالى ﴿١١٠﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ
أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١١﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا
ءَامَنَّا وَآشَهِدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ
رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا
رُبُّدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَعَلَيْهَا مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اٰللهُمَّ رِنَّا اُنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ
لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي
مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنْ
الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ
فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾
مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ ءَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا
دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾
إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا
يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٠﴾ * المائدة: ١١٠ - ١١٩ .

لقد أخبرنا الله سبحانه في كتابه العزيز أن عيسى سيشهد على قومه يوم القيامة قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ النساء: ١٥٩، وها هو الخبر يتحقق عندما يذكر لنا القرآن الكريم مثالا للحوار الذي يدور بين الله سبحانه وتعالى وجميع الرسل ممثلا في ذلك الحوار الرائع مع عيسى عليه السلام لأن بعض الذين آمنوا به قد وضعوه في موضع الألوهية أو بنوة الألوهية، وفي ذلك تعد على التنزيه المطلق للحق سبحانه وتعالى ويقدم الحق سبحانه السؤال لعيسى ابن مريم بعد أن يذكره بعدد من النعم التي أنعم بها سبحانه عليه وعلى أمه مريم عليه وعليها السلام ويستعرض المعجزات التي أتاهها الله إياه ليصدق الناس برسالته، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب وأقبحه وفتن به وبالآيات التي جاءت معه من فتن، وألهود مع الله من أجل هذه الآيات، وهي من صنع الله الذي خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات.

ففي البداية (يعدد الله سبحانه بعضا من نعمه على عيسى ابن مريم وهي: التأييد بروح القدس وهو جبريل عليه السلام، والكلام في المهد بما يبرئ أمه مما ألصقوه بها من اتهامات وتعليم الله له الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه، وأن ينفخ فيه فيصير طيرا بإذنه سبحانه، وكذلك أقدره الله سبحانه أن يبرئ الأعشى من العمى، وأن يعيد إلى الأبرص لون جلده الطبيعي ويشفيه وأجرى على يديه تجربة إعادة التموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه، وكذلك صد الله سبحانه عن عيسى ابن مريم كيد اليهود، وكف أيدى الذين أرادوا صلبه وقتله على الرغم أنه جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فأمن بعض منهم وكفر الذي قال عن تلك المعجزات إنها مجرد سحر) (٣) ويجب أن نلاحظ أن سرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة فالرسول يعلم النعم جيدا لأنها جرت عليه، ولكنه تقرير لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله وبعيسى كرسول من عند الله.

بعد ذلك يسأل الله سبحانه وتعالى عيسى مناديا إياه يا عيسى ابن مريم لتأكيد على بشريته: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ آخُذُونِي وَابْنِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ ﴾ وهو ليس سؤال من يريد أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء، ولكنه سؤال ليقرر السائل المسئول ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بتوته لله، وكذلك ليكون تقرير وتوبيخ وتأييد لمن قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه. ويبدأ عيسى ابن مريم إجابته:

﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ نلاحظ أن عيسى عليه السلام استهل الإجابة بكلمة "سُبْحَنَكَ" لتنزيه الله سبحانه أن يشابه خلقاً من خلق الله، فهو يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله، ويستكمل عيسى ابن مريم إجابته بقضية متفق عليها:

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما في كونه، وبذلك يكون رد عيسى عليه السلام رداً يستوعب كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول ويعرض عيسى عليه السلام المنهج الذي جاء به إلى الناس جميعاً وبلغه تمام البلاغ:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي أنه لم يبلغ إلا ما أمر به الله سبحانه وأنه عبد الله ورسوله، وأنه مجرد شهيد على قومه في زمن وجوده بينهم، ولكن بعد أن توفاه الله فالرقابة على القوم تكون لله، فالحق سبحانه شهيد ورقيب دائماً. ويختتم عيسى عليه السلام إجابته:

"إِنْ تُعَذِّبِهِمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" نلاحظ أن عيسى ابن مريم لم يأت باعتذار أو طلب الرأفة والحنان من الله سبحانه على الذين كفروا وأشركوا به، فالعزیز الحكيم هو الذي لا يغلب على أمره ولا تسيطر عليه قوة، فهو القادر العزيز إن شاء غفر لهم فلا راد لمشيئته.

حوارات مع الجن والإنس

"أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ"

قال تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي ۖ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۖ ﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴿٦١﴾ يس: ٦٠-٦٤.

تمتد جذور هذا الموقف إلى المرحلة التي خلق فيها آدم، والإشارة إلى العداوة التي يكنها إبليس لآدم وذريته عندما أمره الله سبحانه وتعالى أن يسجد لآدم ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَحَرَّتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأُحْتَنِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ الإسراء: ٦١-٦٣ في هذا الموقف يوجه الله سبحانه وتعالى اللوم إلى الذين عصوه من الإنس وأطاعوا الشيطان بالرغم من أنه سبحانه قد حذرهم من عداوة إبليس لهم قائلا:

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي ۖ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أى ألم أوصيكم وأمركم يا بنى آدم على السنة رسلى، ألا تعبدوا الشيطان بأن تطيعوه فيما دعاكم إليه من معصيتى ومخالفة أوامرى، وأوضح لك أنه عدو لكم ظاهر العداوة، فكيف يطيع الإنسان عدوه؟ إشارة إلى قوله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَبِيبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ البقرة: ١٦٨، وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ الإسراء: ٥٣ وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فاطر: ٦، وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ النساء: ١١٩.

ويضيف الحق سبحانه:

«وَأَنِ اعْبُدُونِي» هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وقد أمرتكم أن تعبدوني ولا تشركوا بى شيئا مبينا لكم أن هذا هو الدين الصحيح والطريق الحق المستقيم، إشارة إلى قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٢١.

ويضيف الحق سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ورغم ذلك لقد أضل منكم الشيطان الكثير، أما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم؟ وزيادة فى التوبيخ يبشرهم سبحانه بما ينتظرهم من العذاب قائلا:

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ * أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي أوعدكم بها الرسل ولكن كذبتم بها فذوقوا اليوم حرارتها وقاسوا أنواع عذابها نتيجة كفركم فى الحياة الدنيا ليتحقق وعد الحق سبحانه وتعالى لهم وهم فى الحياة الدنيا ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ التوبة: ٦٨.

رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ

قال تعالى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا بِمِعْشَرٍ آخٍ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (١) الأنعام: ١٢٨-١٢٩.

فى ساحة العرض حيث جمع الله سبحانه الثقلين الإنس والجن يقول لهم:

﴿بِمِعْشَرٍ آخٍ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى قد أضللتكم الكثير من الإنس وقدتوهم إلى الفساد والمعصية، هذا الخطاب يقصد به تسجيل جريمة إغواء هذا الحشد الكبير من الإنس كما يقصد به التأنيب على هذه الجريمة التى تتجمع قرائنها فى هذا الحشد المحشود، لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشيء، ولكن الذين أطاعوهم من الإنس يعترفون ويقررون بأن كل فريق أستمتع بالآخر:

﴿ رَبَّنَا أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ﴾ الجن أستمع بأن فاد الإنسان إلى المعصية، وأستمع الإنسان بمتعة المعصية، فلقد كانت شركة على الاستمتاع يهين الشيطان للإنس المتاع فى مقابل الولاء والأتباع حتى جاء الأجل وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة فى هؤلاء الأتباع ويصدر الحق سبحانه وتعالى حكمه على العاصين من الجن والإنس:

﴿ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ فَخَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أن النار منزلكم ومقامكم خالدين فيها إلا ما شاء الله الحكيم العليم، ففيكم من سيعفو عنه الله سبحانه ويرحمه ويغفر ذنوبه ولن يدخله النار بفضل الله مصداقاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ النساء: ٤٨، ومنكم من سيدخله الحق سبحانه النار ولكن لن يخلد فيها، ومنكم من سيخلد فى النار أبداً. فالحق سبحانه حكيم فى أن يعذب، عليم بمن يستحق أن يعذب ومقدار عذابه، وعليم بمن يستحق أن يثاب وينعم، ومقدار ثوابه ونعيمه، وحكيم أن يرحم.

وكما أستمع الإنس والجن بعضهم ببعض إضلالاً وإغواء، وطاعة واتباع، نجعل من بينهم ولاية ظالم على ظالم، فيسلط الله سبحانه بعض الظالمين على بعض بسبب افتراقهم للمعاصى والذنوب ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ لذلك إذا أراد الحق سبحانه أن يؤدب ظالماً يأتى له بظالم مثله ليؤدبه.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ؟

قال تعالى ﴿ يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (١) الأنعام: ١٣٠.

ويوجه سبحانه السؤال لكل من الجن والإنس:

﴿ يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي ألم تأتكم رسل منكم وضحو لكم رسالتي وأنذروكم وأخبروكم عما سيلقيه الكافرون من العذاب الشديد في هذا اليوم؟ إشارة إلى تحذيره لهم سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا ﴿ يَبْنِي ۖ ءَادَمَ ۖ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ۖ فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ ۖ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿ الأعراف: ٣٥-٣٦

وتأتى الإجابة من الجن والإنس: ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ﴾ أي لم يجد الكافرون من الفريقين إجابة إلا الاعتراف بكفرهم إذن فقد شهدوا على أنفسهم، ولكن ما الذى منعهم من الإيمان ؟ تأتى الإجابة من الحق سبحانه: ﴿ وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ أي أنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية وأعرضوا عن الإيمان بالله. نلاحظ هنا أن السؤال موجه للمكلفين فقط من المخلوقات وهم الإنس والجن، ومنا من يسأل لماذا يسألهم سبحانه وتعالى وهو يعلم الإجابة مسبقاً؟ سؤاله سبحانه ليس الغرض منه الاستفهام، بل الإقرار والاعتراف والتوبيخ فالاعتراف سيد الأدلة .

حوار مع الذين كذبوا بآيات الله

" أَكْذَبْتُمْ بَعَائِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا "

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بَعَائِيَنَا فَهُمْ يُورَعُونَ ﴾
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِبَعَائِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾
 وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٦﴾ ﴿ (٧) النمل: ٨٣-٨٥.

على مرأى ومسمع من جميع الأمم يأمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بجمع وإحضار مجموعة تمثل الجاحدين المكذبين لآيات الله ورسله من كل أمة من الأمم، (لعلهم هم رؤساء الشرك والإلحاد فى كل أمة) الذين ضلوا وأضلوا قومهم فأنكروا قضية الإيمان بالله وكذبوا الرسل بدون فكر وتدبر فقد شغلته الدنيا بما فيها، حيث تسوقهم الملائكة بقسوة وعنف مثل قطيع الحيوانات، فإذا اجتمعوا أمام الذين أطاعوهم وصدقوهم يقول لهم عز وجل توبيخا: " أَكْذَبْتُمْ بَعَائِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ " أى أكذبتم بآياتي من غير فكر ولا تدبر؟ وما هو العمل الذى أخذ كل وقتكم وشغلكم عن أن تتفكروا وتبحثوا فى قضية الإيمان بالله باعتبارها أهم شئ فى حياة الإنسان؟ إشارة إلى قوله سبحانه تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴿ يونس: ٣٩ فلم يستطع المكذبون الرد وبهتوا فلم يكن لديهم إجابة وقامت عليهم الحجة وحق عليهم العذاب بسبب ظلمهم بتكذيبهم آيات الله وسكتوا فقد شغلوا بالعذاب عن الكلام. يا ترى ما هو شعور الذين اتبعوهم وهم يشاهدون قادتهم فى هذا الموقف؟

حوارات مع الذين كذبوا على الله

"وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ"

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١) الأنعام: ٩٤.

يدل سياق الآيات السابقة أن هذا الموقف خاص بالذين كذبوا على الله سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (الأنعام: ٩٣) حيث اغتر الذين كفروا بكثرة الأموال والأولاد، بالرغم من تحذير سبحانه لهم بأنها لن تفيدهم ولن تدفع عنهم العذاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (آل عمران: ١٠)، وأنهم سيأتون للسؤال والحساب يوم القيامة فرادى ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٩٥) بلا مال ولا نصير ولا معين، ويصل بهم الشرك منتهاه عندما يزعمون أن الأصنام التي يعبدوها من دون الله ستشفع لهم عند الله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، فعندما يقف هؤلاء المشركون أمام الحق سبحانه للحساب نسمع قوله عز وجل لهم:

"وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ" أي لقد جئتمونا للحساب منفردين

عن الأهل والمال والولد حفاة عراة كما خلقناكم أول مرة، كل منهم مهموم بنفسه لا ينشغل إلا بها يتمالكه شعور بالوحدة بالرغم من وجوده في تلك الأعداد الهائلة.

"وَتَرْكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ" أي وتركتكم ما أعطيناكم من مال وأتباع وجاه

وسلطان في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب.

" وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفٍّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ " أى وأين هم آلِهَتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم، والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله فى استحقاق العبادة، ما لنا لا نراهم معكم فى هذا اليوم لكى ينقذوكم مما أنتم فيه، ويدفعوا عنكم هذا العذاب.

" لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ " أى لقد تقطع وصلكم ونشئت جمعكم، وضاع وتلاشى ما زعمتم من الشفعاء والشركاء، فكل من جعلوه شريكا مع الله سيفر منهم يوم القيامة.

أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٨﴾ (١) هود: ١٨ - ١٩.

يؤكد سبحانه وتعالى أن ليس هناك من هو أظلم ممن افترى على الله الكذب، فجعل له سبحانه شركاء، أو زعم أن الله قد بعثه نبيا، أو ادعى أنه سينظم كلاما يماثل ما أنزل الله أو حلل حراما وحرم حلالا، فالكذب على الله أعظم الذنوب. فعندما يعرض هؤلاء الذين افترىوا على الله الكذب صفا أمام الله سبحانه، ويظهر الحق ما كان خافيا منهم، ويكشف سبحانه الناس أمام بعضهم البعض، وأمام أنفسهم، ويغشاهم الخزي والخجل والمهاتة، فما يكون من الأشهاد الموجودين في ساحة العرض وهم: الملائكة التي كانت تلازمهم في الحياة الدنيا، والأنبياء الذين بلغوهم منهج الله، وأيضا المؤمنون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن يشهروا بهم ويلعنهم قائلين:

" هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ " أي أن هؤلاء الذين افترىوا على الله الكذب، وكفروا بالله وآياته ورسله، وصدوا غيرهم عن الإيمان بالله وأنكروا الرسالة والرسول قد بلغوا المنهج، وبلغوا أيضا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى، وأن عقوبة هذا الإنكار هي الخلود في النار، وماداموا قد كذبوا على الله فلا بد أن يطردوهم من رحمته. وصدق سبحانه وتعالى الذي قال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّهٗ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ البقرة: ١٥٩ وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ البقرة: ١٦١.

حوارات مع الذين أجمعوا

" رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا "

قال تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ (السجدة: ١٢-١٤).

عندما يقف المجرمون أمام الحق سبحانه ناكسوا الرءوس، لا ترتفع جباههم خجلا وحسرة وندامة يلفهم الخوف والفزع يقولون في حسرة وألم:

" رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا " أى لقد رأينا وسمعنا وأدركنا إدراكا تاما ما كنا ننكره من أمر الرسل، التى أخبرتنا أن نعبد الله ولا نشرك به، وأن هناك بعث ونشور، وحياة أخرى بعد الموت يثاب فيها المطيع، ويجازى فيها المسئى، وتيقنا من أن وعدك حق ولقاءك حق.

ونتساءل لماذا قالوا " رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا " ألم يكن لهم بصر وسمع فى الحياة الدنيا؟ بلا ولكن سيطرت عليهم الغفلة فكان لهم قلوب لا يفهمون بها الحق، ولهم أعين لا يبصرون بها آيات الله، ولهم أذان لا يسمعون بها كلام الله إشارة إلى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلُ نَعْمِرَ بَلْ هُمْ أَصْلُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وَيَتَمَنَوُا الْعُودَةَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَاتِلِينَ :

" فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ " أى ردنا إلى الحياة الدنيا، ولتعطينا فرصة أخرى لكى نعبدك ونطيع جميع أوامرك فنحن الآن مصدقون تصديقا جازما.

ويأتى رد الله سبحانه عليهم:

" وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى " أى أنه سبحانه لا يحتاج إلى إيمانهم، لو أراد عز وجل هداية جميع الخلق لفعل، ولكن ذلك ينافى حكمته، لأنه يريد منهم الإيمان عن اختيار لا عن إكراه وإجبار.

"وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" أي أنه سبحانه وعد - ووعده حق - بعذاب المجرمين، وأن يملأ جهنم بالعاصيين من الجن والإنس أجمعين. وينتهي الحوار بإصدار الحكم عليهم متضمنًا الحيثيات:

"فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" أي ذوقوا عذاب جهنم الأليم بسبب نسيانكم الدار الآخرة واتغمازكم في الشهوات، وأننا نترككم في العذاب إلى الأبد، كما تركتم العمل بآياتنا فالعذاب من جنس العمل.

فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ ؟

قال تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١١)
الأعراف: ٥٣.

عندما يشاهد الذين لم يؤمنوا بالقرآن الكريم وتركوا العمل به أهوال يوم القيامة، ويتحقق لهم صدق ما أخبر به الرسل من الوعد والوعيد، يقرون ويعترفون قائلين: "قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ" أي أنهم يعترفون بأن رسل الله قد بلغتهم الرسالة فلم يؤمنوا بهم ولم يتبعوهم بالرغم من تحقق لهم صدقهم، أي أنهم سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ندم ولا إيمان فالإيمان يكون بالغيب لا بالمشاهدة، ويتساءلون في حسرة وألم عن من يشفع لهم: "فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا" أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب؟ وسيبحثون عن من يشفع لهم، لكنهم لن يجدوا، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم ويتمنون من الله سبحانه أن يعطيهم فرصة أخرى قائلين:

"أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟" أو هل لنا من عودة إلى الحياة الدنيا لنعمل صالحا غير ما كنا نعمله من المعاصي؟ وينتهي الموقف بالتعليق على هذه الأماني:

"قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" أي أنهم خسروا أنفسهم واستحقوا العذاب لعدم إيمانهم بالله، ولم ينفعهم ما كانوا يزعمون من شفاعة الآلهة والأصنام.

حوارات مع الذين أشركوا

"أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ"

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ٦٢ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ ٦٣ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ ٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ٦٦ (١)

القصص: ٦٢ - ٦٦ .

يسأل سبحانه وتعالى المشركين على سبيل التوبيخ:

"أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ"؟ أى أين هؤلاء الشركاء والآلهة والأصنام والأنداد التى عبدتموهم وأطعموهم من دونى، وزعمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم؟ إشارة إلى قوله سبحانه ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ فيسارع رؤسائهم وزعمائهم الذين ضلوا قومهم على مدار العصور وزينوا لهم الباطل بالإجابة خوفا من أن يقال عليهم أنهم هم الآلهة التى عبدوها وأطاعوها من دون الله، لأن جزاء أنهم أضلوا قومهم أخف وأهون من جزاء أدعاء الألوهية، فيعترفون قائلين:

"رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا" أى ربنا هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك، لقد أضللناهم كما ضللنا نحن من قبل. وبعد هذا الاعتراف الصريح يقولون:

"تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ" مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ " أى يتبرعون إلى الله من عبادة قومهم لهم عندما أطاعوا أوامرهم، لأنهم كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم.

فيقول سبحانه وتعالى لهم:

"أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ" ؟ أى ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم فى الحياة الدنيا لئى تنجيكم وتمنع عنكم العذاب. ماذا يكون موقف المشركون؟ إنهم أبصروا الآن الحقيقة كاملة وعرفوا أنه إله واحد لا إله إلا هو، أنه موقف يشابه موقف الذى يشرف على الغرق ولكن يريد أن يتعلق بأى شىء، وليكن فليجربوا آخر شىء لديهم فليدعوا شركاءهم لئى يخلصوهم من هذا الكرب ويدفعوا عنهم عذاب الله "فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ" أى تتعالى الأصوات لدعوة الآلهة لئى تنقذهم، وعندما لا يجيبهم احد وأمام هذا العذاب الذى ينتظرهم لم يكن لديهم إلا الندم. "وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ" أى وأخيرا رجعوا إلى الحق وندموا وتمنوا حين رأوا العذاب لو أنهم أمنوا وكتابوا مهتدين فى الحياة الدنيا. ويسألهم سبحانه وتعالى:

"مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ"؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم؟ ولكن ماذا يقولون فقد فقدوا الحجج واختلطت عليهم الأمور فلم يعرفوا ما يقولون فهم حيارى واجمون لا يسأل بعضهم بعضا لفرط ما هم فيه من الدهشة والحيرة "فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ"

"فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا"

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ شُرَكَاءُ آلِ الَّذِينَ رَعِمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٢﴾ (١٣) الكهف: ٥٢ - ٥٣.

فى هذا الموقف يقول سبحانه وتعالى للمشركين:

"نَادُوا شُرَكَاءَ آلِ الَّذِينَ رَعِمْتُمْ" أى ادعوا شركائى ليمنعوكم من عذابى ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون إشارة إلى قوله سبحانه ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨. فاستغاثوا بهم فلم يغثوهم، وهذا دليل آخر على حماقتهم فكان عليهم أن يعودوا إلى الحق ويعترفوا بما كذبوه، ولكنهم تمادوا فى طغيانهم ونادوهم لينقذوهم، ولكن أنى لهم ما يريدون فقد تقطعت بينهم الصلات، ثم جعل الحق سبحانه بينهم مكانا مهلكا، فلا الداعى يستطيع أن يلوذ بالمسدعو ولا المدعو يستطيع أن ينتصر للداعى ولنفسه ويخبرنا سبحانه عن حالهم:

"وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا" أى عندما يرى المشركون النار وهى تتغيظ حنقا عليهم يتيقنون أنهم داخلوها لا محالة ولا يستطيعون الهرب منها.

"وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ"

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٢﴾ (١١)

الأنعام: ٢٢ - ٢٣.

عندما يقرع سبحانه المشركين فيحشرهم مع آلهتهم التى عبدوها من دون الله، وفى ذلك قمة الإهانة لهم ولتلك الآلهة، يسأل سبحانه وتعالى المشركين على سبيل الاستهزاء والتوبيخ فالاستفهام من العليم لا يقصد منه العلم، وإنما يقصد به الإقرار من المسئول:

"إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ"؟ أى أين هى الآلهة التى عبدتموها وأطعتموها وجعلتموها شركاء لله؟ لماذا لا يتقدمون لإيقادكم من العذاب؟ يا ترى ماذا يكون ردهم وقد رأوا الحقيقة كاملة وعرفوا مصير أهل الأيمان وكيف تجاوز الله عن سيئاتهم ومدى النعيم الذى ينتظرهم، ومصير أهل الكفر والعذاب الذى ينتظرهم إلى الأبد، إتهم يريدون أن يفروا من هذا العذاب ولا مجال هنا لتقديم الأعذار والأسباب التى جعلتهم مشركين، فليكذبوا وينفوا عن أنفسهم تهمة الشرك بالله:

"وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ" لقد أفقدهم هول الموقف رشدهم ونسوا أنهم فى الآخرة حيث لا يخفى منهم خافية، فيحلفون لله تعالى كما كانوا يحلفون للمؤمنين فى الدنيا كذبا ويظنون أن حلفهم هذا سوف ينفعهم وينجيه من العذاب كما نفعهم فى الدنيا، أى يقسموا بالله كذبا أمام الله أنه موقف غريب حقا، ولكن تلك هى عادتهم فى الحياة الدنيا، وصدق سبحانه وتعالى الذى قال ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ المجادلة: ١٨.

"هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ"؟

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٧٤) وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ (الفصل: ٧٤-٧٥).

على مدار العصور وتعاقب الأمم، نجد المشركين كلما دعاهم رسولهم إلى عبادة الله الواحد وترك عبادة الأصنام يقولون: ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله ويشفعوا لنا عنده قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ الزمر: ٣ وتوعدهم الحق سبحانه ﴿ تَأْتِيهِمْ لِسْعَةٌ مِنَ الْمَاءِ فَأَتْتُم بِهِ ظِلًّا مِمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ النحل: ٥٦ فماذا يكون موقفهم يوم الحساب عندما يناديهم الحق سبحانه:

"أَيْنَ شُرَكَاؤِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ"؟ أى أين هؤلاء الشركاء والآلهة والأصنام والأنداد التى عبدتموهم وأطعتموهم من دونى، وزعتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم؟ وتحقيقاً للعدالة المطلقة تحاسب كل أمة فى حضور رسولها ليكون بمثابة الشاهد عليهم "وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا"، ويطلب سبحانه منهم أن يوضحوا الحجج والبراهين التى دعتهم إلى الشرك بالله: "فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ"؟ فعدالة الله تلبي أن تعذبهم دون أن يدافعوا عن أنفسهم. لكن دائماً لا إجابة لهذا السؤال. ويأتى تعليق الحق سبحانه فى نهاية الموقف:

"فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" أى لقد علموا الآن وتيقنوا أن الحق لله ولرسله وأنه لا إله إلا الله ونسوا وغاب عنهم كل ما كانوا يتخرسونه فى الحياة الدنيا من حجج باطلة وأقوال زائفة طالما تشدقوا بها فى الحياة الدنيا وضلوا وأضلوا بها الكثير من قومهم.

ءَاذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَئِنَّ شُرَكَاءِي قَالُوا ءَاذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ۖ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظُنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ۚ ﴾

فصلت: ٤٧-٤٨.

ينادى الله سبحانه المشركين: " أَئِنَّ شُرَكَاءِي " أى أين الذين زعمتم أنهم آلهة؟ فى المواقف الأخرى لم يكن لهذا السؤال إجابة عند المشركين فتارة ينفون عن أنفسهم أنهم مشركون وأخرى يصمتون ولا يتكلمون، ولكن فى هذا الموقف يقر المشركون ويعترفون قائلين: "ءَاذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ " أى أعلمناك وأخبرناك الآن بالحقيقة ما منا من يشهد بأن لك شريكا، فجميع الآلهة التى عبدها واتخذوها شركاء لله فى الحياة الدنيا ليس لها وجود وتيقنوا الآن أنه لا مهرب ولا منقذ لهم من عذاب الله.

أَئِنَّ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ

قال تعالى ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَئِنَّ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ (النحل: ٢٧).

فى هذا الموقف حيث يذل سبحانه وتعالى المشركين ويهينهم ويفضحهم، ويقول لهم على سبيل التوبيخ: " أَئِنَّ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ " ؟ أى أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تعادون من أجلهم أنبيائي ورسلي، أين هم الآن ليشفعوا لكم ويمنعوا عنكم العذاب.

دائما هذا السؤال ليس له إجابة، فالحقيقة انكشفت واتجلت معلنة لا إله إلا الله وحده لا شريك له فماذا يقول المشركون؟ ويسكت القوم من الخزي لتنتطلق ألسنة الذين أوتوا العلم من أهل الموقف الأعظم من الملائكة والرسل والمؤمنين، وقد أذن الله لهم أن يكونوا فى هذا اليوم متكلمين ظاهرين حيث يقولون: " إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ " أى أن الذل والهوان والعذاب محيط اليوم بمن أشرك وكفر بالله.

مواجهات بين المشركين والذين اتخذوهم آلهة

"إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ"

قال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (النحل: ٨٦-٨٧).

عندما يشاهد المشركون شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم في الحياة الدنيا، ويزعمون أنهم شركاء لله، فكأنهم وجدوا ضاللتهم المنشودة، ومن يتحمل عنهم العذاب لأنهم هم الذين أضلوهم فقالوا معترفين بذنبهم وأملا في تخفيف العذاب: "رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ". عندئذ يرتاع شركاؤهم للاتهام، ويسارعون في تكذيبهم ونفى هذه التهمة الخطيرة عنهم قائلين: "إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ" وصدق سبحانه وتعالى الذي قال ﴿وَاعْتَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨٨﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ (مريم: ٨١-٨٢).

والآن ما العمل بعد أن خاب ظنهم وأسقط الأمر في أيديهم: "وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" أي ليس لهم سوى الاستسلام لحكم الله سبحانه بعد الآباء والاستكبار في الحياة الدنيا وبعد أن ضاع أملهم في أن آلهتهم ستشفع لهم عند الله.

"مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ"

قال تعالى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَزَقْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَفْلَةٍ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (يونس: ٢٨-٣٠).

يونس: ٢٨-٣٠.

ففى ساحة العرض حيث الازدحام الشديد يجمع سبحانه وتعالى بين المشركين وبين الذين اتخذوهم آلهة من دون الله، ويواجه بعضهم ببعض لتكون الفضيحة تامة وعامة، بين عابد عبد باطلا، ومعبود لم يطلب من عابده أن يعبد مثل الملائكة والرسول، أو معبود لا علم له بمن يعبد مثل الشمس والقمر والأصنام أو معبود طلب من عابده أن يعبد مثل شياطين الإنس وشياطين الجن، يوجه الحق سبحانه الأمر للذين أشركوا والشركاء الذين عبدوهم من دون الله: "مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ" أى ألزموا مكانكم ولا تتحركون. ويتم التفريق بينهم "فَزَلَلْنَا بَيْنَهُمُ" وينقطع كل ما كان بينهم من تواصل فى الحياة الدنيا، وهكذا يتلاقى من عبد الملائكة مع الملائكة، ويتلاقى من عبد رسولا وجعله إلها مع الرسول الذى عبده، ومن عبد صنما، أو عبد شمسا، أو عبد قمرا، أو عبد جنا، مع من عبدوهم. ويأذن الله سبحانه للذين اتخذوهم آلهة بالكلام لكى يدافعوا عن أنفسهم تلك التهمة الخطيرة: "وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ" وعلى الفور تبرؤا من المشركين قائلين ما كنتم إيانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا، وصدق سبحانه وتعالى القائل ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وإذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿الْأَحْقَافُ: ٥-٦﴾ ويستشهدون بالله على صدق قولهم: "فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ" أى يكفى الله سبحانه شاهد على صدق قولنا فهو سبحانه الحق الذى لا تخفى عنه خافية.

وينهى الذين اتخذوهم آلهة من دون الله دفاعهم قائلين: "إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ" ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين لا نشعر بها ولا ندرى أنكم تعبدونها. ويتحقق ما أخبر به الحق سبحانه من أن الآلهة التى يعبدوها من دون الله لينالوا بها الشرف سوف تتبرأ منهم ومن عبادتهم إياها، ويكونون لهم أعداء يوم القيامة ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فاطر: ١٤ وفى نهاية الموقف يبين لنا الحق سبحانه حالهم: "هَذَا لِك تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ" عندئذ تعرف كل نفس جزاءها، فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه حيث تنال كل نفس جزاء ما عملت بالعدل، ويرد الذين أشركوا إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه، أنهم كانوا مع الله أولا بالفطرة التكوينية المؤمنة، ثم أخذهم الشركاء وفى هذا اليوم يرجعون لربهم سبحانه وينتهى الموقف بخيبة أمل للمشركين فى أن آلهتهم ستشفع لهم عند الله سبحانه.

حوار بين الله سبحانه والذين عبدوهم من دون الله

ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (١٧) قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿ ١٨ ﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَنَظْمًا نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ (١٩) الفرقان: ١٧ - ١٩.

فى هذا الموقف نتعرف بشيء من التفصيل على المواجهات التى تحدث بين المشركين وكل من عبدوهم من دون الله وقد اجتمعوا معا فى موقف واحد، فيقول تعالى للمعبودين:

" ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ " أى هل أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم أم هم ضلوا السبيل فعبدوكم من تلقاء أنفسهم - هذا الاستفهام الغرض منه توبيخ المشركين لأنه سبحانه يعلم كل شئ - فيجيب المعبدون من دون الله:

" سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ " أى تنزهت يا الله عن الأنداد ولا يحق لنا ولا لأحد من الخلق أن يعبد غيرك ولا أن يشرك معك سواك، ويوضحوا السبب فى شرك المشركين:

" وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا " أن شرك هؤلاء المشركين نتيجة كثرة النعم بكل صورها من مال وصحة وولد وغيرها التى تفضلت عليهم وعلى آباؤهم بها، وبدلا من أن يشكروا الله على هذه النعمة أعرضوا عن ذكر الله والإيمان بما جاء به الرسل وكانوا قوما هالكين إشارة إلى قوله تعالى ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ الأنبياء: ٤٤ وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا نِعْمَتَنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ الإسراء: ٨٣.

فيقول سبحانه للمشركين:

" فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا " أى فقد كذبوكم فى ادعائكم عليهم أنهم آلهة، وأنتم الآن لا تستطيعون دفع العذاب عنكم ولا نصر أنفسكم من هذا البلاء.

وينتهى هذا الحوار ببيان من الله سبحانه لجزاء كل من يشرك:

" وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا " أى أن من يظلم نفسه بالشرك ندقه عذابا شديدا.

حوار بين الله سبحانه والملائكة

أَهْتُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ٢٠ قالوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْتْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ٢١ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ٢٢ ﴾ (٢٠) سبأ: ٢٠ - ٢٢.

لكى نفهم أبعاد هذا الموقف جيدا لابد من العودة إلى الحياة الدنيا حيث يبين لنا القرآن الكريم أن من المشركين من عبد الملائكة بزعم أن ذلك يرضى من الله سبحانه، وادعوا كذبا أن لو شاء الله ما عبدوا هؤلاء الملائكة، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْسًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَنُسْئَلُونَ ﴾ ٢٣ وقالوا لو شاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ٢٤ ﴾ الزخرف: ١٩-٢٠، كذلك بين لنا القرآن الكريم أن من المشركين من جعلوا الجن شركاء لله حيث أطاعوهم فى عبادة الأوثان، فماذا يحدث يوم القيامة وقد اجتمعت الملائكة مع الذين عبدوهم من دون الله؟ ففى ساحة العرض وقد حشرت جميع المخلوقات يسأل عز وجل الملائكة مشيرا إلى المشركين:

" أَهْتُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ " والاستفهام يراد به توبيخ المشركين فهو سبحانه يعلم أن الملائكة منزّهون عما نسب إليهم. ويأتى رد الملائكة مثالا للأدب الكامل مع الله والعبودية الخالصة لله:

" قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْتْنَا مِنْ دُونِهِمْ " أى تعاليت وتقدست يا ربنا على أن يكون معك إله أنت ربنا ومعبودنا الذى نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة ونحن نتبرأ إليك منهم. هذا هو الشرط الأول من جواب الملائكة تنزيه الله وإقرار بالعبودية منهم.

ويأتى الشطر الثانى من الإجابة ليسجل شهادة الملائكة عليهم:

" بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ " أى أن هؤلاء المشركين كانوا يعبدون شياطين الجن الذين زينوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم إشارة إلى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ الأنعام: ١٠٠. ويقول تعالى ردا على مزاعم المشركين:

" فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا " حيث لا ينفع العابدون ولا المعبدون بعضهم لبعض لا بشفاعاة ولا بدفع العذاب والهلاك.

ويصدر الحكم عليهم: " وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ " .

دعوه للسجود

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ

قال تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾﴾
(١١) القلم: ٤٢ - ٤٣.

حين يشتد الكرب والفرع يوم القيامة، وتظهر حقائق الأشياء وأصولها، يدعى الكفار والمنافقون للسجود لرب العالمين ليس تعبدا لله ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود فى الدنيا، وتحسيرا على تفريطهم فى ذلك، وهنا نرى مشهدا فى غاية الغرابة فعندما يهملوا بالسجود يسلبهم الله عز وجل القدرة على السجود حيث تتصلب ظهورهم فلا يستطيعون السجود كى تزداد حسرتهم وندامتهم، ونراهم قد ذلت أبصارهم لا يستطيعون رفعها وتغشاهم الذلّة والهوان، والحكمة من ذلك أنهم كانوا فى الحياة الدنيا يدعون للسجود لله وهم أصحاب سالمون فيأبون لكفرهم وعنادهم.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: (سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقا واحدا) (١٢) الساق فى اللغة: الأمر الشديد، فيكون المعنى: يكشف عن الأمر الشديد.

مواقف الجدل والخصام بين الأتباع والمتبوعين

فى كل زمان ومكان وفى كل أمة من الأمم، ومنذ أن خلق الله سبحانه آدم وحتى قيام الساعة والبشر بينهم أتباع ومتبوعين، مستضعفين ومستكبرين، فريق يدعوا إلى عدم الإيمان ويزين الكفر والعصيان بشتى الحجج والبراهين وفريق آخر يتبعهم ويردد أفكارهم ليس عن اقتناع تام أو يقين ولكن لأنها تقابل هوى فى نفوسهم، واستعدادا لعدم الإيمان ومعصية لأوامر الله عز وجل، ولكن سرعان ما تنتهى الحياة الدنيا ويقابل كل منهم الآخر يوم الحساب ويرى هؤلاء وأولئك ما ينتظرهم من عذاب أليم فى نار جهنم المائلة أمامهم فيبدأ كل منهم فى إلقاء اللوم على الآخر فكل منهم يريد أن يبرئ ساحته أمام الله سبحانه حيث يحدث بينهم الكثير من مواقف الجدل والخصام يصورها لنا القرآن الكريم فى أكثر من موضع ويخبرنا عن نص الحوار الذى يدور بينهم.

لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ

قال تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ۖ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالتَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي أَغْتَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (سبا: ٣١ - ٣٣).

يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم: لو شاهدت يا محمد حال الظالمين المنكرين للبعث فى موقف الحساب وهم يلوم بعضهم بعضا ويؤنب بعضهم بعضا لرأيت أمرا فظيعا مهولا حيث يقول الأتباع للرؤساء:

" لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ " أى لولا إضلالكم لنا لكانا مؤمنين، فيرد عليهم الرؤساء

متسانلين:

"أَحْنُ صَدَدْتِكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ۖ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ" أي أنحن منعناكم عن الإيمان بعد إذ جاءكم؟ لا ليس الأمر كما تقولون بل أنتم كفرتم من ذات أنفسكم، لأنكم مجرمون .

ويقول الأتباع للرؤساء:

"بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا" أي مكرهم بنا وترينكم الباطل لنا طوال الوقت هو الذي صدنا عن الإيمان ودعوتكم لنا أن نكفر بالله ونجعل له شركاء، هكذا يكيل كل فريق التهم للآخر، وينتهي الجدل المحتدم بينهم فكل الفريقين على خطأ، ويشعران بالندامة والحسرة على كفرهم حين يرون العذاب ولكن لم يظهروها بل أخفوها على بعضهم البعض "وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ" وتوضع القيود والسلاسل في رقابهم ويسحبون منها إلى جهنم جزاء كفرهم وإجرامهم "وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" .

لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ هَدَيْنَكُمْ

قال تعالى ﴿ وَبَرَّزُوا لِلَّهِ حَمِيحًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ هَدَيْنَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ إبراهيم: ٢١.

فى هذا الموقف من مواقف اللوم فى ساحة العرض نرى الضعفاء الذين كانوا ذيو لا للأقوياء، وهم ما يزالون فى ضعفهم وقصر إدراكهم، وخور نفوسهم، يلجئون إلى السادة الكبراء والقادة الذين أضلّوهم فى الدنيا يسألونهم الخلاص من هذا العذاب، ويعتبون عليهم إغواءهم فى الحياة الدنيا:

" إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ " أى كنا أتباعا لكم نأتمر بأمركم فهل أنتم دافعون عنا شيئا ولو بسيطا من عذاب الله .

فيجيبهم القادة وقد ذلت كبرياؤهم، وواجهوا مصيرهم، وقد ضاقت صدورهم بهؤلاء الضعفاء الذين لا يكفيهم ما يرونهم ما هم فيه من ذلة وعذاب، فيسألونهم الخلاص، وهم لا يملكون لأنفسهم خلاصا، ويذكرونهم بجريمة إغوائهم لهم حيث لا تنفع الذكرى، فما يزيدون على أن يقولوا لهم فى سأم وضيق معتذرين:

" لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ هَدَيْنَكُمْ " أى لو أخذ الحق سبحانه يادينا فى الحياة الدنيا إلى الإيمان لقدناكم إلى هذا الإيمان ولكن ضللنا طريقنا فأضللناكم.

ويقولون: " سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ " أى أنهم سواء جزعوا وتضرعوا أو صبروا وصمدوا فلن ينجيهم الله سبحانه مما هم فيه، فلا مهرب ولا منجى.

بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

قَالَ تَعَالَى ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجِيْهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٣٤) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (٣٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ (٣٧) قَالُوا بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغِيْنَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غُيُوْنِ ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٨) ﴿ (٣٩) الصافات: ٢٢ - ٣٤.

فى هذا الموقف وقد حشر الظالمون وأشباههم من العصاة والمجرمين مع الآلهة الذين عبدوها من دون الله تمهيدا لمحاسبتهم عما اقترفوه من آثام، يقال لهم على سبيل السخرية والتوبيخ:

" مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ " أى ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا وأنتم جميعا فى حاجة إلى الناصر والمعين، ونراهم فى هذا الموقف وقد زال عنهم كل تكبر، واستسلموا وأصبحوا أذلاء منقادين يلوم كل منهم الآخر، حيث يقول الأتباع للمتبوعين:

" إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ " أى كنتم تأتوننا من منطلق القوة والقدرة وتزينون لنا الباطل وتصدوننا عن أتباع طريق الهدى. فيجيبهم الرؤساء:

" قَالُوا بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغِيْنَ " أى ليس الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان، وما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها على إتباعنا، بل كنتم مجرمين طاغيين، فلذلك استجبتم لنا، ويضيف الرؤساء قائلين:

" فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ " ووجب علينا جميعا وعيد الله لنا بالعذاب، فإتينا لذائقون هذا العذاب لا محالة. مصداقا لقوله تعالى ﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ سورة يونس: ٧٠.

وينتهي الحوار بقولهم:

" فَأَعُوذُ بِكُمْ إِنَّا كُنَّا غَافِلِينَ " أى زينا لكم الباطل ودعوناكم إلى الغي لأننا كنا على غي وضلال، وفى نهاية الموقف يخبرنا سبحانه وتعالى أنهم مشتركون فى العذاب كما كانوا مشتركين فى الغواية وهذا هو مصير المجرمين " فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ " .

يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ

قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ٣٧ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ٣٨ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ٣٩ ﴿ ٣٦ ﴾ الزخرف: ٣٦ - ٣٩ .

فى هذا الموقف وقد جاء كل من أعرض عن عبادة الله سبحانه هو وقرينه من شياطين الجن أو الإنس الذى كان يوسوس له ويغويه فى الحياة الدنيا ويصده عن طريق الهدى والإيمان ويزين له الباطل فيحسب أنه على هدى وصواب، حيث يقول كل من أعرض عن عبادة الله سبحانه لقرينه:

" يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ " أى يتمنى لو كان بينه وبين قرينه بعد ما بين المشرق والمغرب ويضيف قائلا بنس صاحب أنت لأتلك كنت سببا فى شقائى بتزيينك الباطل لى.

يقول سبحانه وتعالى:

" وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ " أى لمن يفيدكم اشتراككم فى العذاب ولا تجدون راحة الناسى التى يجدها المكروب فى الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه لأن المصيبة إذا عمت هانت.

لَيْتَنِي لَمْ أُخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ﴿ يَوَلِّيْكَ لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ ﴿ الفرقان: ٢٧ - ٢٩ .

كل ظالم يندم ويتحسر على نفسه لما فرط في جنب الله، وعض اليدين هنا كناية عن شدة الندم والحسرة، ويقول:

" يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا " أى يا ليتنى اتبعت رسول الله وآمنت بما جاء به من عند الله فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى ينجينى من العذاب.
ويضيف قائلاً:

" يَوَلِّيْكَ لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا " أى يا هلكى ويا حسرتى يا ليتنى لم أصاحب فلاناً - ويسمى صاحبه - " لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي " لقد أضلنى عن طريق الهدى والإيمان بعد أن اهتمدت وآمنت، " وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا " فالشيطان سواء كان من شياطين الإنس أو الجن يضل الإنسان ويغويه ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره.

مواقف وحوارات فى أرض الحساب وردت فى الأحاديث النبوية:

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (أول من يدعى يوم القيامة آدم فترأى ذريته فيقال: هذا أبوكم آدم فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك فيقول: يا رب كم أخرج؟، فيقول: من كل مائة تسعة وتسعين، فقالوا يا رسول الله إذا أخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون فماذا بقى منا؟ قال: إن أمتى فى الأمم كالشجرة البيضاء فى الثور الأسود) (٢٨).

عن فضل الحب فى الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول الله يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلمهم يوم لا ظل إلا ظلى) (٢٩).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت ولم تعدنى قال: يا رب، وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب، وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني؟ قال: يا رب، وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟

قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ؟) (٣٠).

قال العلماء معنى وجدتني عنده أى وجدت ثوابي ورحمتي عنده.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟، فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك فيقول: محمد وأمته).

فيشهدون أنه قد أبلغ، ويكون الرسول عليكم شهيدا فذلك قوله جل ذكره (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (٣١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟، قال: قاتلت فيك حتى استشهدت

قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت القرآن قال: كذبت ولكنك تعلمت لأن يقال عالم، وقرأت القرآن ليقال فارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار (٣٢).

المرور على الصراط

بانتهاه الحساب وفصل القضاء بين العباد يساق الكافرون والمشركون إلى جهنم، ويبقى الموحدون بالله سواء من الأمم السابقة أو من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما فيهم من عصاة ومنافقين، وللمؤمنين يومئذ نور على قدر أعمالهم الصالحة، فمنهم من يكون نوره قويا شديدا ومنهم من يكون نوره على قدر إيهامه ومنهم لا نور لهم مثل المنافقين قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا تُخْزَى أَلْفُ النَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا نُورَنَا وَأَعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التحريم: ٨.

ثم يؤذن في نصب الصراط وهو جسر على جهنم للعبور عليه إلى الجنة، على جانبيه كلاب لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم، ويبدأ المرور عليه، ويكون النبي صلى الله عليه وسلم وأمه أول من يمرون على الصراط ثم يتبعهم باقى الأمم، وكل فرد يرى على قدر النور الذى أعطاه الله له حسب عمله، وهنا نرى الذين آمنوا وعملوا، وقد أصبح كل منهم بمثابة مصدر يشع نورا أمامه وعن يمينه، وتناديهم الملائكة وترف إليهم البشرى بالجنة، قال تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الحديد: ١٢.

حوار بين المنافقين والمؤمنين

" أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ "

قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٠﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَيْمَ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢﴾﴾ (١٣) الحديد: ١٣-١٥.

لا يستطيع المنافقون والمنافقات أن يبصروا مواضع أقدامهم للمرور على الصراط فيقولون للذين آمنوا: " أَنْظِرُونَا نَقْتَسِسَ مِنْ نُورِكُمْ " أى انتظرونا لنستضيئ بنوركم، لان المؤمنين كما سبق القول قد أصبح كل منهم مصدر يشع نورا أمامه وعن يمينه. فيقول لهم المؤمنون سخرية واستهزاء بهم:

" اَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا " أى ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك. وهنا يقام حاجز أو سور له باب يفصل بين المؤمنين وبين المنافقين، حيث يكون باطن السور المواجه للمؤمنين فيه الرحمة، وظاهره فى الجهة المقابلة للمنافقين فيه العذاب.

وينادى المنافقون المؤمنين: " أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ " أى ألم نكن معكم فى الدنيا نصلى كما تصلون، ونصوم كما تصومون. فيقول لهم المؤمنون: " بَلَىٰ وَلَئِنْ كُنْتُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصُمْ وَارْتَبَسْتُمْ وَاغْرُتْكُمْ الْأَمَانُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرْكُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ " أى نعم كنتم معنا فى الظاهر ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق، وانتظرتم بالمؤمنين الدوائر وشككتكم فى أمر الدين، وخدعتكم الأمانى الفارغة بسعة رحمة الله حتى جاءكم الموت وخدعكم الشيطان بقوله إن الله غفور رحيم لا يعذبكم. ويضيف المؤمنون:

" فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ " وَيَسَّ الْمَصِيرُ " أى فى هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدل ولا عوض ومقامكم ومنزلكم نار جهنم.

ويمر المؤمنون على الصراط، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وتختلف سرعة المارين على الصراط طبقا لأعمالهم، فمنهم من يمر بسرعة تماثل سرعة الضوء، ومنهم من يمر بسرعة الريح، ومنهم من يمر بسرعة الطير، وهكذا، حتى أن آخرهم الرجل الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يحبوا على وجهه ويديه ورجليه يجر بيد ويعلق بد ويجر برجل ويعلق رجل وتضرب جوانبه النار حتى يخلص، ويتساقط المنافقون والعصاة فى النار حيث تسخطفهم كلابيب الصراط بأعمالهم.

عن أبى هريرة قال: قال أناس يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: (هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: هل تضارون فى القمر ليلة

البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا لا يا رسول الله، قال: فأتكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس، فيقول: من كان يعبد شينا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتهم الله فى غير الصورة التى يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا ربنا عرفناه فيأتهم الله فى الصورة التى يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا ويضرب جسر جهنم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وبه كلاب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فأتها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله فتخطف الناس بأعمالهم: منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو ... الحديث (٣٤).

والحكمة فى مرور المؤمنين فوق الصراط هى أن مجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى، فحين يرون العذاب الرهيب الذى أنجاهم الإيمان منه يدرك كل منهم مقدار نعمة الله عليه وفضله أن أنجاه من هذا العذاب قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ثُمَّ تُنْجَى الَّذِينَ آتَقُوا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴿٧٢﴾ مريم: ٧١ - ٧٢.

والمارين على الصراط ثلاثة أصناف:

- ناج بلا خدش وهو من زادت حسناته على سيئاته أو استويا أو تجاوز الله عنه.
- الصنف الثانى الساقط من أول وهلة وهو من رجحت سيئاته على حسناته.
- والصنف الثالث متوسط بينهما تضرب جوانبه النار ثم ينجو.

ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه موقف الذين عبروا الصراط ونجوا من السقوط فى النار بقوله (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة. فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا) (٣٥).

الحوض

للنبي صلى الله عليه وسلم فى أرض الحساب حوض ماء كبير متسع، متباعد الجوانب يأتيه الماء من نهر داخل الجنة وهو الكوثر، ماء هذا الحوض أشد بياضا من اللبن ورائحته أطيب من رائحة المسك وعنده أبريق كعدد نجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ بعده أبدا، قال النبي صلى الله عليه وسلم (حوضى مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدا) (٣٦).

وعندما يشتد العطش بالناس، ويقترب المسلمون من الحوض ليشربوا نجد الملائكة تجذب بعضا منهم وتدفعهم بعيدا عنه فيقول صلى الله عليه وسلم يا رب أصحابى فيقال له إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، قال النبي صلى الله عليه وسلم (إنى فرطكم على الحوض: من مر على شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا. ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونى، ثم يحال بينى وبينهم. فأقول: أنهم منى. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سحقا سحقا لمن غير بعدى) (٣٧).

وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: (قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنى على الحوض حتى انظر من يرد على منكم، وسيؤخذ ناس دونى، فأقول: يا رب منى ومن أمتى فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم) (٣٨).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشفع لى يوم القيامة فقال: أنا فاعل إن شاء الله، قلت: فأين أطلبك؟ قال: أول ما تطلبنى على الصراط، قلت: فإن لم ألقاك على الصراط؟ قال: فطلبنى عند الميزان، قلت: فإن لم ألقاك عند الميزان؟ قال: فطلبنى عند الحوض، فإنى لا أخطئ هذه الثلاث مواطن) (٣٩).

أصحاب الأعراف

توزن أعمال العباد يوم القيامة بميزان العدل الإلهي، فمن رجحت حسناتهم على سيئاتهم دخلوا الجنة، ومن رجحت سيئاتهم على حسناتهم دخلوا النار، قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١١﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٢﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿١٣﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴿١٤﴾ تَارُ حَامِيَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ القارعة: ١١-٦ ولكن من تساوت حسناتهم مع سيئاتهم هؤلاء هم أصحاب الأعراف فلم تثقل موازينهم فيدخلون الجنة ولم تخف موازينهم فيدخلون النار. هؤلاء القوم يحبسون على سور مرتفع بين الجنة والنار حتى يقضى الله سبحانه فيهم، وهو السور الذي ذكره سبحانه وتعالى في قوله ﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ ذَبَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الحديد: ١٣. وأصحاب الأعراف يعرفون كلا من أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم أو بعلامتهم التي ميزهم الله بها فمثلاً أصحاب الجنة بيض الوجوه يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وأصحاب النار سود الوجوه ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٦-١٠٧ ويدور بينهم وبين كل من أصحاب الجنة وأصحاب النار هذا الحوار:

قال تعالى ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴿١﴾ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ ﴿٢﴾ وَنَادَاوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ ﴿٣﴾ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ وإذا صرقت أبصرهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴿٥﴾ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴿٦﴾ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿٧﴾ ﴾ الأعراف: ٤٦-٤٩.

حين يشاهد أصحاب الأعراف أهل الجنة يتمتعون بحيونهم: " أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ " وهى تحية أهل الجنة لبعضهم البعض، ولكن على الرغم من أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد، لكنهم يطمعون فى دخولها برحمة الله وفضله " لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ". وأكثر

أحوالهم النظر إلى أهل الجنة، ولكن حين يجبرون على النظر إلى أصحاب النار ويشاهدون ما عليه أهل النار من العذاب يستغيثون بربهم من أن يجعلهم معهم قائلين: " رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " .

وينادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار يعرفونهم كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان قائلين: " مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ " أى أن اجتماعكم على الضلال فى الدنيا واستكباركم على الدعوة إلى الإيمان لم ينفعكم بشيء ولم يغن عنكم شيئا .

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين قائلين: " أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ؟ " أى أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم فى الدنيا تسخرون منهم وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة؟ والاستفهام هنا الغرض منه توبيخ أهل النار . ويقولون لأهل الجنة:

" أَذْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ حَزَنُونَ " أى تمتعوا فى الجنة إلى الأبد غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة .

☆ الهوامش ☆

- (١) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٣ ص ٩٧.
- (٢) تفسير الشعراوى ج ٦ ص ٣٤٥٠ - ٣٤٥١.
- (٣) تفسير الشعراوى ج ٦ ص ٣٤٥٢ - ٣٤٥٣.
- (٤) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٣ ص ٢١ - ٢٢.
- (٥) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ١ ص ٤١٨ - ٤١٩.
- (٦) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ١ ص ٤١٩.
- (٧) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٤٢٠.
- (٨) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ١ ص ٤٠٦.
- (٩) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ١٠.
- (١٠) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٥٠٣.
- (١١) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ١ ص ٤٥٠.
- (١٢) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٤٤١.
- (١٣) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ١٩٥.
- (١٤) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ١ ص ٣٨٤.
- (١٥) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٤٤٥.
- (١٦) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ١٢٣.
- (١٧) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ١٣٨.
- (١٨) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ١ ص ٥٨٢.
- (١٩) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٣٥٧.
- (٢٠) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٥٥٨.
- (٢١) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٣ ص ٤٣٠.
- (٢٢) متفق عليه البخارى رقم (٤٩١٩) كتاب التفسير، باب يوم يكشف عن ساق (يكشف عن ساقه).
- (٢٣) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٥٥٢.
- (٢٤) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٩٥.
- (٢٥) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٣ ص ٣١.
- (٢٦) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٣ ص ١٥٨.
- (٢٧) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٣٦١.

- (٢٨) متفق عليه أخرجه البخارى رقم (٦٥٢٩) فى كتاب الرقاق باب الحشر.
- (٢٩) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ١٢٣ فى البر والصلة. باب فضل الحب فى الله تعالى.
- (٣٠) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ١٢٥ باب فضل عيادة المريض كتاب البر والصلة.
- (٣١) البخارى رقم (٤٤٨٧) فى كتاب التفسير، باب وكذلك جعلناكم أمة وسطا.
- (٣٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٣ ص ٥٠ فى الجهاد باب من قاتل للرياء والسمعة وأستحق النار.
- (٣٣) سورة الحديد: ١٣ - ١٥، تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ٣ ص ٣٢٤.
- (٣٤) متفق عليه أخرجه البخارى (٦٥٧٣) فى كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم.
- (٣٥) أخرجه البخارى حديث رقم (٦٥٣٥) فى الرقاق، باب القصاص يوم القيامة.
- (٣٦) أخرجه البخارى حديث (٦٥٧٩) فى كتاب الرقاق، باب الحوض.
- (٣٧) أخرجه البخارى حديث (٦٥٨٣ - ٦٥٨٤) فى كتاب الرقاق، باب الحوض.
- (٣٨) أخرجه البخارى حديث (٦٥٩٣) فى كتاب الرقاق، باب الحوض.
- (٣٩) جامع الأصول فى أحاديث الرسول ج ١٠ ص ٤٧٣، أخرجه الترمذى رقم ٢٤٣ فى صفة القيامة باب ما جاء فى شأن الصراط، وإسناده حسن.
- (٤٠) تفسير الآيات فى صفوة التفاسير للصابونى ج ١ ص ٤٤٧.